

تحديات المواطنة وضرورة الطرح التاريخي

عبورة محمد

المركز الجامعي مرسلني عبد الله - تيبازة

الإشكالية:

تعتبر المواطنة صمام الأمان لوحدة الوطن و تطوره و ازدهاره، و هي التي تحدد هوية الأفراد، و على قد توافق هوية الأفراد تتحدد هوية الوطن.

وإذا كانت المواطنة صمام الأمان للوطن فإن الأصالة هي صمام الأمان للمواطنة نفسها، فهي هويتها وتاريخها و شخصيتها المتميزة.

وحقيقة الصراع الحضاري تفرض على الأمم التثبيت بهويتها وتميزها لمواجهة خطر الزوال أو الذوبان في الآخر.

وفي ضوء هذا تتحدد مشكلة الملتقى في بحث تحديات العولمة ومدى تأثيرها على درجة المواطنة و مفهومها و قيمها. كما تتحدد في مدى تجذر المواطنة في العمق التاريخي و تأصلها في أعماق الضمير الوجداني للمجتمع، وما هي الإستراتيجيات و الحلول الملائمة للحؤول دون فقدان الهوية الوطنية وتنمية مشاعر روح الوطنية؟ .

الإطار المفاهيمي :

المواطنة ممارسة، إجراء يبدأ بتحصيل و تلقي لحقوق، ثم يستمر هذا الإجراء بعد الرشد حيث ينشأ مبدأ الواجب المنوط بالفرد في حدود ما هو قادر على تأديته على الوجه المحبوب و المستوى المطلوب و الكم المرغوب.

أين و متى يطرح موضوع المواطنة كمشكلة؟ و الجواب المفترض :

ليس في كل البلدان تطرح مشكلة المواطنة.

ليس في كل الظروف تطرح مشكلة المواطنة في البلد الواحد.

ليس هناك فهم واحد للمواطنة عند أفراد المجتمع الواحد.

يرتبط مفهوم المواطنة بالاستقرار في البلد، كما يرتبط مفهومها بالمقاومة والنضال من أجل الاستقلال و الاستقرار و التطور، كما أن مفهوم المواطنة يحمل معنى التضحية بالإضافة إلى الواجب من أجل بسط الأمن والخير والرفاهية في البلد.

وذلك كله يقتضي العدل الاجتماعي والمساواة في الحقوق الطبيعية، والحقوق الطبيعية مكفولة شرعا وقانونا، وهي :

الحق في الحياة، الحق في الحرية، الحق في التعليم، الحق في المأوى والمكسب والعمل، الحق في الصحة و العلاج، وتبعاتها الحق في الانتماء والانتساب والانتخاب والمشاركة في الحياة الاجتماعية.

وما زاد على هذه الحقوق ارتبط شرطاً بما فوق أداء الواجب، من روح المبادرة و التطوع، و التبرع و الاجتهاد و الإبداع، و ما زاد في الأداء والانجاز زاد في الحق، وبذلك يتحقق التكامل والتفاضل معاً، وهذا هو جوهر المساواة وحقيقة العدالة الاجتماعية.

إن المواطنة مفهوم مركزي ضمن بنية من المفاهيم كالحرية والمسؤولية والعدل القضائي و العدل الاجتماعي والديمقراطية والحقوق والواجبات ...

هذه البنية المفاهيمية إما أن تكون نسفاً ديناميكياً وظيفياً غائياً تتكامل فيه الجوانب الذاتية والموضوعية فينشأ عنه تفاعل وظيفي يؤول إلى حال الحل وهو ما يعبر عنه بالوعي الحضاري الحقيقي وهو يعبر عن موقف قدرة.

وإما أن تكون مجرد بنية ستاتيكية غير وظيفية يكون المفهوم "المواطنة" ضمنها شعاراً أجوف اجتث من سياقه ما له من قرار تتعارض فيه الخصائص الذاتية مع الخصائص الموضوعية.

يؤدي هذا التعارض بالضرورة إلى تفاعل غير وظيفي و يعبر عن موقف عدم القدرة، يفرز مشاكل اقتصادية و اجتماعية و أخلاقية تتمثل في البطالة والرشوة والمحسوبية والاختلاس والغش في العمل والمعاملة وعدم الإتقان والانحرافات الأخلاقية و الظلم والعنف وضياع الأمانة...

وكل ذلك يفضي إلى إفراز طبقية وصراعات داخلية وإقليمية خارجية تضيق في خضمها مصالح الأمة فتهد في كيانها وهذا هو حالنا اليوم. الاستبعاد والاستبداد في أتون هذه التناقضات وبهذا يصبح الوطن والمواطن أشبه ما يكون بقصعة تتداعى عليها الأمم و فريسة لكل أشكال الاستغلال الأجنبي وعرضا مستباحا لمختلف أنواع الغزو الثقافي والهيمنة الاقتصادية والسياسية والفكرية.

إذن أين تكمن المشكلة و كيف تطرح وما هي عواملها؟

إن المشكلة لا تطرح على مستوى العولمة، ولكن تطرح على مستوى المواطنة نفسها، لا تطرح على المستوى الخارجي ولكن تطرح على المستوى المحلي، لا تطرح على المستوى الموضوعي وإنما تطرح على المستوى الذاتي.

إن قضية المواطنة تحيلنا على التاريخ، تحيلنا على الذاكرة الجماعية للأمة نحلها نرتب أحداثها ومبرراتها لنصل إلى مسلمة أن لا أمة بدون تاريخ، كما أنه لا وجود لتاريخ بدون أمة، وكم من أمم بطرت معيشتها وركنت إلى الترف والدعة حتى إذا غطت في نومها طواها الزمن في رداء النسيان وهذا القانون ينطبق تماماً على الفرد من حيث هو كيان وجودي له مراحل طفولة تبني خلالها شخصيته وهي ذاكرته الحافلة بارهاصات الماضي الممتدة في الحاضر والمستقبل ولا يمكن إلغاؤها أو التناكر لها.

فكما أحيانا المواطن على التاريخ تحيلنا العولمة إلى المستقبل الذي هو إحدى حالتين، إما أننا نريد أن نكون أمة صانعة للحضارة وإما أمة على هامش الحضارة مستهلكة لمنتجات أو مكدسة لها على حد تعبير مالك بن نبي، تستهلك لتستهلك، مع ما لدينا من طاقات معطلة على حد تعبير محمد الغزالي رحمهم الله جميعا.

فحالنا اليوم هو محصلة ما كنا عليه بالأمس من حال الجهل الموروث عن العهد الاستعماري على حد تعبير مولود قاسم نايت قاسم رحمه الله بكل ما تحمل الكلمة من معنى، وقبل هذا كانت حالة الضعف والإضعاف الذي أصاب مجتمعاتنا نتيجة الحملات الصليبية على المشرق والمغرب، وقبل هذا وذاك كان الوهن الذي أصاب الأمة بعد العصر العباسي الثاني وسقوط الخلافة العثمانية، وسقوط الأندلس نتيجة الانشغال بالخلافات تارة والانغماس في الترف تارة أخرى و التقاعس عن إعداد القوة بكل أبعادها، فكان لا بد أن يكون التحول التدريجي طبيعيا من الغزو لمنعه إلى الوهن والدعة إلى الضعف والتبعية والأمعة من متبوعين إلى تابعين.

ومع كل ذلك ما انطفأت جذوة الوطنية وما انكفأت إرادتها في البقاء، لأن الأمة لم تنهزم نفسيا قط عبر مراحل تاريخها وهذا هو سر بقائها.

إذن فالمواطنة كما ترتبط بالمجال الكوني المحدود بالزمان والمكان ترتبط كذلك بالمجال النفسي اللامحدود وهو المحرك للإرادة، المحرك للجهد المبني على الفعالية والفعالية أداة صنع الحضارة.

إذا كانت الحضارة عند مالك بن نبي لا تتجاوز المجال الأرضي: (الإنسان، التراب + الزمن)، فإن المعادلة اليوم قد تغيرت حيث أصبح السباق كونيا وهو أكبر من السباق الأرضي على مستوى اليابسة، هذا بالنسبة للتقدم البسيط الذي أحرزته الحضارة الحالية على مستوى الطبيعة وهي المجال الكوني على أوسع مداه، هذا وإن تحققت الهيمنة على المجال الكوني وتم اقتسام مناطق النفوذ فإن الصراع اليوم مازال حول القيمة الهيمنة على المجال النفسي لاستكمال السيطرة و الوصول ليس فقط إلى غربنة العالم بل إلى أمركنته وأوروبا نفسها تعاني اليوم من هيمنة النموذج الأمريكي .

إن الخطر الذي يهدد كيان أمتنا يتمثل في تهديد هويتها وطمس معالم شخصيتها الوطنية. ومصدر هذا الخطر يمكن في سطوة العولمة وما تروج له من دعاوي التمسك بالقيم الإنسانية العالمية و احترام حقوق الإنسان المشترك، والقرية الكونية، والتربية من أجل السلام العالمي إلى غير ذلك من مصطلحات ومفردات يعج بها قاموس العولمة المعاصر، إنه نموذج وخطاب ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب والوبال على مجتمعاتنا.

وهذا شبيه بما كانت تروج له السلطات الفرنسية في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية من مفاهيم سرايته خادعة: كالتعاون والتحالف، التعاقد، وكلها مفاهيم منبثقة عما يدعونه فلسفة الأنوار.

إن عولمة الثقافة يعني تنميط الثقافات وصهرها في إطار النمط الغربي بحيث تفرض فيها استهلاكية سطحية تساهم في تشويه البنية التقليدية مما يؤدي إلى تغريب الإنسان وعزله عن قضايا وطنه، وإشعاره بالضعف والتشكيك في قناعاته الدينية وثوابته الوطنية، هذا التحدي مطروح بحدّة خاصة في الدول العربية والإسلامية لأنها المتضرر الأكبر من تبعات العولمة على معتقداتها وقيمها وثقافتها بوجه عام، على خلاف المجتمعات الوثنية .

وترجع أغلب الدراسات أسباب العديد من المشكلات التي يعاني منها شباب اليوم إلى اضطرابات النسق القيمي لديه، فالمؤثرات المادية والنفعية التي تسود في ظل العولمة تؤثر في الشباب والمراهق وتجعله في حيرة من أمر هل يتمسك بما يتماشى مع قيم مجتمعه ومعتقداته أم يتبع ما لا هو جديد وافد عليه يوميا عبر مختلف الشبكات الإعلامية والاتصالية، هذا الصراع يؤدي إلى اضطراب هويته ويفقد الإحساس بأصالته فيضطرب وحدانيا مما يؤثر على سلوكه وأفكاره.

إن القرن الحالي هو قرن الغزو النفسي، لأن الغزو الأرضي العسكري قد تجاوزه الزمن وأصبح التسليح التقليدي مقتصرًا على الكيانات الضعيفة لغرض الاستعمال المحلي، استنزاف للطاقة واستضعاف للضعيف، وأن الغزو الفكري قد وصل إلى ذروته وبلغ مداه، ومع ذلك فإن كانت أمتنا قد انهزمت على المستوى المادي فهي لم تنهزم على المستوى النفسي، إن ظاهرة ميوع الشباب ولهته وراء مظاهر الغرب إنما هو إسقاط للواقع الغربي، ومظهر من مظاهر التعويض بل مظهر من مظاهر البحث عن الذات إذن فهو القلق وهو ما يسمى بالدورة النفسية يبدأ بالقلق والقلق هو البحث عن مبررات الوجود لإثبات الوجود.

فإذا ضاق فكر الإنسان ضاق كونه و ضاقت عليه الأرض حيث إن الإنسان الذي وعى مبرر وجوده فسعى له سعيه فحقق منتوجه الحضاري باستجابته وإرادته و وعيه للمبرر، هو الإنسان صانع الحضارة لأن الفاقد للمبرر التاريخي الوجودي فاقد للإرادة وفاقد للوعي بالضرورة.

إن المواطن الحقيقي لا يكون مواطن إلا إذا كان ذا حس تاريخي لأن المواطنة هي امتداد للتاريخ ومواجهة له في نفس الوقت، فإذا كنا للتاريخ جاهلين فكيف نصنع التاريخ ونحن لسنا قادرين على توجيه أحداثه بفعالية.

فإذا أن نكون في قلب الحدث التاريخي أو نكون على هامش التاريخ نتفرج و نكون بالتالي في موقف التلقي لا موقف الإرسال أو نكون في موقف الفعل لا في موقع الانفعال " Les acteur réussissent mieux que les spectateurs. "